

دائرة المعارف الأولى لدیدیرو

بتقدير
الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بقسم الدراسات العليا بجامعة الأزهر

البحث مكاناً ممتازاً يتناسب مع جهوده الجبار العملاق
في هذه الموسوعة العظيمة .

عندما يزيد الباحث أن يقسم كتاب القرن الثامن عشر حسب النزج العادي ، وأن يميز بين أذصار العقل وأتباع العاطفة ، يجد نفسه بإزاء « دیدیرو » حائراً كل الحيرة ، فهو من ناحية ، ملهم دائرة المعارف التي هي من أسمى إنتاج الفلاسفة العقليين في ذلك العصر ، كما أنه من أبرز المفكرين الذين يقسّمون الطبيعة . وهو من ناحية أخرى منجم من مناجم الأحساس والعواطف : وفوق ذلك فإنه منبع من منابع الحماس والحرارة ، وطليعة من طلائع الرومانسية الأوروبيّة . وتعتبر شخصيته ملتفي لما يعد عند غيره من التضادات كالعقل والعاطفة . وكان إلى جانب ذلك كله قوياً قوة لا تغالب وذا عزيمة فولاذية ، بل إن فريقاً من الباحثين قد جزم بأن الفضل في وجود دائرة المعارف راجع في أكثر نواحيه إلى عزيمة دیدیرو ، ويعلن أن كل ما عزى إليه من ضعف صحي كان ينمّحى أمام شجاعته وإصراره على إنهاء عمله ومثابرته في متابعته بلا أدنى

تمهيد

لما كانت طبيعة دائرة المعارف وضرورة روح العصر الذي نشأت فيه ، تتطلبان أن يعمل في تحريرها أكبر عدد ممكن من العلماء والكتاب المتخصصين في أفرع العلوم المتنوعة ، وجواب الشفاعة المتباينة الأنحاء والنزاعات ، فقد اقتضى ذلك أن تسهم في تحريرها أقلام من جميع الطبقات والدرجات التي تتفاوت رفقة وإنحداراً ، وتتبادر عمقاً وسطحة :

غير أنه - مع هذا - لا ينبغي أبداً أن يقاس جهود أي واحد من هؤلاء المحررين بمجهود دیدیرو الذي عالج وحده أكثر من ألف مادة في هذه الموسوعة عن تاريخ الفلسفة والأخلاق وعلم الجمال والفنون الميكانيكية وما إلى ذلك .

ومن المواد الهامة التي عنى بها عناية خاصة الفن والسلطة والأسطوطاليسيّة ، والإيمقوريا والخلود ، والإنسان ودائرة المعارف والجميل وهلم جرا .

لذلك كله يت frem علينا تقديرأً للجهود المشكورة ، والإنتاج الرفيع ، ووضعها للأمور في مواضعها من سجل التاريخ أن تخصص دیدیرو بين صفحات هذا

توقف أو فتور : وفي الحق أنه كان يحمل لرسالته حباً وحرارة لا يتيسران إلا للمتنسken . وأخيراً يمكن القول بأن سلوكه في ذلك المحيط الموسوعي كان على مستوى ذكائه ومواريه .

حياته

ولد « ديدир و » في مدينة « لأنجر » سنة ١٧١٣ من أسرة متواضعة لم يعرف التاريخ لها ماضياً ماجداً كما أنه لم يأخذ عليها ما يشن السمعة أو يخوض العرض ، أو يسيء إلى الكرامة ، وكذلك لا يشيد حاضرها بثروة طائلة أو يترف عريضاً ، وإن كان لا يعرف لها موقفاً من مواقف الذلة أو المهانة .

كان والد « ديدير و » تاجر أسلحة يعيش في هذه المدينة الصغيرة من مهنته ، وقد اشتهر بين كل عارفه بالصدق والأمانة والتقوى والاستقامة ، فاحترمه الجميع وأجلوه وأنزلوه المنزلة الجديرة بالشرفاء والأتقياء ، فأسعدوه منهم هذا التقدير ، وأراح ضمراه راحة سدت لديه مسد مراتب الغنى والجاه والسلطان : ولما تبرع « ديدير و » أدخله والده مدرسة اليسوعيين في مدینته ، فنشأ نشأة دينية محافظة من الجانبين ، لأن أسرته كانت قد بلغت من التقوى والورع حداً لا تفوقه مدرسة اليسوعيين إلا بالأساليب النمقة ، والعبارات المنظمة . ولما أتم دور الدراسة الثانوية ارتحل إلى باريس ليدرس الحقوق في كلية العالية : وبعد أن أتم دراسته عرض عليه والده أن يختار أحد أمراءن : إما أن يبحث له عن عمل يعيش منه وإما أن يعود إلى مسقط رأسه ، ليعيش بجانب والده معيشة لا تكلفه تلك النفقات الباهظة التي ينفقها في باريس : وكان هذا الأمر الأخير مستحيلاً ، لأنه قد تعود على أساليب الحياة الباريسية وألف الاختلاف إلى البيئات الثقافية المليئة بالحركة والنشاط . فبعث إلى والده رسالة رفض فيها العودة إلى المدينة الصغيرة فلم

يكن من هذا الوالد الذي ناء بعبء النفقات الفادحة بالنسبة إلى أمثاله إلا أن قطع عن ابنه ما كان يرسله إليه من مال . فلما رأى ديدير و أنه أصبح فريداً لا عنده ولا سند في الحياة ، وأضحى منزلاً على العمل القوت ، لأنه إما أن يعيش من مجده الخاص ، وإما أن يهوي إلى حضيض البوس الذي يعتبر الثراء في حانوت والده خيراً منه ألف مرة ، ولكن هذا الشاب الذي المحتلى قوة وحيوية قد انجرحت كبرياته وأهين في عزته وأعتبر هذه المعاملة القاسية من والده شائكة لشخصيته ، فهو يقدح زناد فكره للخروج من هذا المأزق الذي لحقه منه – وهو لا يزال في ريعان شبابه – إهانة قاسية . فاحتدى في النهاية إلى حل ينقذه من هذه الورطة التي أوقعته فيها ظروفه السيئة ، وهذا الحل هو أن يخترف الدروس الخاصة يعطيها لصغار الطلاب ويتقاضى عليها أجوراً بسيطة ، وكتابة العظام الدينية التي كان القسس والوعاظ الدينيون يلقونها في القرى على دماء الناس وجهاتهم ، فكان يكتسب من هذين العملين ما يكفي لإنفاقه في باريس ببيئة متوسطة : وفوق ذلك كانت والدته تبعث إليه الصيادة الزائدة عن حاجتها من المال خفية عن زوجها مع خادمة أمينة : ولم يكن ديدير و شاباً سفيناً أو سوء التصرف حتى ينفق كل ما يصل إلى يده من المال على مظاهره أو على بواعث ملذاته ، وإنما كان شاباً عاقلاً حكيماً يحرم نفسه مباحث الحياة الباريسية الفاخرة ، بل بعض ضرورياتها ليقتصر مبلغاً من كل شهر ينفقه على تعلم اللغات التي لا قوام لحياته الأدبية إلا بها . فأنفق الإنجليزية والإيطالية والإغريقية واللاتينية ، ولم يكتف بهذه الدراسة العالية للغات المختلفة ، بل أحسن في نفسه بشغف شديد يدفعه إلى التبحر في الرياضة ، فأرضى هذا الشغف في نفسه وعكف على موادها المختلفة فقتلها حيثاً وتعلقاً . ولماذا تعتبر الأعوام العشرة التي تلت وقوع سوء التفاهم بينه وبين والده أرق سفي حياته وأكثرها

خصوصية وتنقفاً وتحصيلاً وإن كانت تعتبر أشد أيامه فقرأً وبؤساً وحرماناً من مسرات الحياة .

وبعد ذلك بزمن كتب كتاباً سماه «رسالة عن المكفوفين» أهان فيه صديقاً عزيزاً لأحد الوزراء، فانهزم هذا الوزير فرصة ما كان الشعب قد رمى به «ديديرو» من اللادينية والإلحاد ، وهمما جرّعتان شنيعتان في فرنسا في ذلك العصر ، فاختفى تحت ستار الدين ودبر الحقيقة لهذا الكاتب وزوج به في أعماق السجون بجريدة الإلحاد ، ولكنـه في الواقع كان محنقاً عليه لما وجهه إلى صديقه من إهانات ، فلـبث في السجن مائة يوم كانت سبباً في شهرته وذيوع مجده في أنحاء الدولة .

ولما كان أحد رجال الحكم إذ ذاك يعلم أنه كان قبل سجنه يعمل على رأس فريق من العلماء والجهابذة لإعداد دائرة معارف كبيرة ستكون - لو تمت - فخرًا لفرنسا ، وأنه هو روح هذه الجماعة وقلبه الخفاف وأنها بدونه ستكون معرضة للفشل والخيبة ، صمم على الإفراج عنه ومنحه الحرية ليستطيع أن يؤدي عمله الماجد على الوجه الأكمل المراد وقد فعل ، فعاد إلى مهنته واستمر في أداء واجبه .

تضافرت كل هذه الأحداث أى مؤلفات الكاتب الشاذة ورميه بالإلحاد ، وإهانته لصديق الوزير على لاسطاع كوكبه وتلألئه في سماء باريس ففضلت البيئات العالية إلى مرآه ، واشتاقت المنتديات الفخمة إلى دعوته والتحدث إليه ، وكانت هذه المنتديات الأدبية تذكر اسمه إلى جانب اسمى «فولتير» و«جان جاك روسو» ويـتـلـوـ المـجـتمـعـونـ فيهاـ بـعـضـ تـعـبـيرـاتـهـ علىـ أـمـهـاـ مـخـتـارـاتـ أوـ نـماـذـجـ يـنـبغـيـ اـحـتـذـاؤـهـاـ .ـ وـلـمـ يـقـفـ الـأـمـرـ عـنـ هـذـاـ الحـدـ .ـ بـلـ كـانـ كـثـيرـ مـنـ مـشـقـىـ الـعـصـرـ يـدـعـونـهـ بالـفـيلـيـسـوـفـ مـنـ غـيرـ ذـكـرـ اـسـمـهـ .ـ وـإـذـ ذـكـرـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ فـيـ الـقـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ صـحـبـهاـ الإـجـالـ وـالتـبـجيـلـ

دائرة المعارف

نظرة عامة

الذى سيفضلونه . ولا جرم أن هذا الأساس الذى رموا إليه هو إنتاجهم الشخصى الذى كانوا موقنين بأنه سيغير وجه التاريخ بإلزام المعرفة البشرية . وأبرز جوانب هذا الإنتاج العمالقى هو دائرة المعارف الفرنسية الأولى أو الموسوعة العظمى التى كانت مرآة القرن الثامن عشر الخلوة الصافية ، والتى ضمت بين دفتيرها أهم أفرع الثقافة الإنسانية التى كانت معروفة إلى ذلك الحين . وفي الحق أن الإجماع يكاد يكون منعقداً على أنها كانت أعظم أحداث ذلك العصر ، وأنها كانت هي المركز资料ي لتأريخ الفكر فى تلك العصور المتلازمة ، وقد يكون في هذا النعت شيء من المغالاة ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن فكرة هذه الموسوعة لما كانت قد نشأت من نموذج إنجلزى ، وارتبدلت صورتها النهائية في باريس ، ودعيت إلى المиграة إلى سويسرا ، وببروسيا وروسيا حين حظر عليها الثواء في مسقط رأسها ، وسطاعت أشعتها في أشد البلاد تبايناً ، وأعيد طبعها ، وتعددت حماكماتها في كل مكان ، فقد كانت حقاً إحدى القوى العقلية التي تمثل أوروبا كلها تمثيلاً صحيحاً .

مساس الحاجة إلى دائرة المعارف

كان منشأ تمثيل دائرة المعارف لأوروبا كلها هو أن الاتجاه الشامل كان في كل مكان مندفعاً نحو حب الاطلاع والشغف بالمعرفة بصورة مفرطة ، وأن روح العصر كلها كانت تتوق إلى إلحرار أكبر قسط من الثقافة بأقل مجهود . ومن آيات ذلك ما يلاحظه أحد محررى صحيفة « مذكرات تريشو » في أغسطس من سنة ١٧١٥ إذ يقول : « يجب على كل امرئ أن يكون عملاً ولكنne يحاول أن يصير كذلك بشمن رخيص ، تلك هي عبقرية عصرنا » .

كانت هذه الملاحظة دقيقة ، ففي الواقع هل كانوا يريدون أن يتعلموا الهندسة دون أن يلاقوا كثيراً

مما لا ريب فيه أن القرن الثامن عشر هو الذي منح التطورات الغربية تلك الصور المتجلية التي شاهد اليوم نتائجها واضحة المعالم ، وأن تلك الحقبة من تاريخ أوروبا هي الآونة الخامسة التي فصلت بين ماضيها ومستقبلها . ومن ثم كان من المأثور أن يقرأ الباحث في منتجات المؤلفين المحدثين – سواء أكانوا من العلماء أم من النقاد ، أم من المرتادين – هذه العبارة : « نحن الورثة المباشرون للقرن الثامن عشر » وفي الحق أن عدداً ضخماً من المؤلفات المعاصرة قد خصص للدراسة اتجاهات المدنية الغربية في تلك الحقبة ، وأن هذه المؤلفات جميعها قد عنيت بأن تقف وقفة المتمعن عند تلك الثورة العقلية التي سبقت الثورة السياسية وأعدت لها النقوس والغقول ، والتي كانت شعار ذلك القرن الذي أطلق عليه أعلام مفكريه اسم « عصر الأنوار » لأن أولئك الأعلام كانوا مهددون إلى « تبديد تلك الكتلة الكبرى من الظلام الذي غمز الأرض » على حد تعبير ديديرو » .

وفي الواقع أنتا نرى في جلاء أن ذلك القرن كان عصر العقليين وذوي الحجج المتنعة وال فلاسفة التجربيين أى أن أفراده كانوا أرباب عقول حادة قاسية ، ونقوش جافة لا تعرف سوى المكافحات والمناضلات والنقد الحازم الحاسم ، وأنهم كانوا يأخذون على أسلافهم أنهم ورثوهم مجتمعاً سيئاً ردئاً اضطهد الطبيعة واستهان بالعقل ، وجعل السعادة غير ممكنة الاقتناص ، وقد زعموا أنهم هم الذين سيجدون العلاج الناجح المجرى من كل هذه الأدواء الخطيرة ، وأنهم سيلحقون السعادة حتى يستولوا عليها بعونته العقل والعلم وحدهما ، ولكنها سعادة بشرية فقط تلك التي يعودون وراءها ذلك العدو المتواصل ، وأنهم سيلحقونها بفضل الأساس العلمي

نجد هدفها واضحاً في الخطبة التمهيدية التي صدرت بها إذ قال فيها دالامبير ما يلي :

«هذا السفر موضوعان : فهو صفت أنه دائرة معارف ، يجب أن يعرض بقدر المستطاع نظام المعرف الإنسانية وتسلسلها ، وبوصف أنه قاموس تعقلي للعلوم والفنون والمهن ، يجب أن يحتوى – على كل علم وكل فن عقلياً كان أو ميكانيكيأً – على المبادئ العامة التي هي أساسه، وعلى التفاصيل الجوهرية التي تؤلف كيانه».

كيف نشأت دائرة المعارف

حوالى سنة ١٧٤٤ شرع ثلاثة من الناشرين الباريسين ، وهم برياسون ، ودافيد ، ولوران ، في دراسة مشروع ترجمة الموسوعة الإنجليزية التي كان افراهم شامبرس قد سبق بها فرنساً منذ سنة ١٧٢٨ ، فجمع المعرف العالمية في مجلدين ضخمين من القطع الكبير عنوانهما : «دائرة المعارف أو القاموس العالمي للعلوم والفنون» وهو الذي أدى له بالشهرة والفائدة في حياته ، والحمد بعد موته ، إذ دفن في «ويستمنستر» إلى جانب علماء الإنجليز الذين كانوا قد استحقوا تقدير وطنهم :

ولقد أذفى أولئك الناشرون مشروعهم هذا إلى الألب «ديجواردي مالف» وطلبو إلينه أن يكون مشرفاً على هذه الترجمة . ولكن عندما عرضوا هذه الفكرة على الطابع ليريتون أوجس في نفسه خيفة من شذوذ عقلية ذلك الألب ، وسرعان ما فكر في إسناد هذا العمل الضخم إلى ديديرو . وفي أوائل سنة ١٧٤٦ فاتحه في هذا الأمر وأعلن إليه أنه لا يعتمد عليه في ترجمة هذه الموسوعة فحسب ، بل في أن يوكلهما ويدخلن عليها من الاعتداش وحسن النوق وسلامة الفطرة ما ليس في مكتبة الألب أن يفعله ، وعرض عليه في مقابل ذلك العمل مائة جنيه شهرياً . ولما كان ديديرو

من المشقة ؟ والعلوم في وقت قصير وبلا مساعدة أى أستاذ ؟ واللاتينية وهم يلهون ؟ والقواعد النحوية في سرعة وبطريقة للذيدة ؟ لا ريب أنهم في كل مرة كانوا يظفرون بما يريدون ، لأن هناك كتاباً ظهرت حديثاً كانت تعرض عناوين مجرية مثل : «الرياضة صناعة هيبة» و «منهج جديد به يستطيع المرء أن يصير عالماً بلا أستاذ ، وبلا دراسة ، وبلا مشقة» :

كان هذا الاتجاه ثابتاً لا يتغير وبعد أربع وثلاثين سنة كتبت «صحيفة العلماء» بدورها في نوفمبر من سنة ١٧٤٩ ما يلي : «يجب الناس أن يعرفوا ولكنهم يريدون أن يتعلموا بلا مشقة وفي قليل من الوقت وذلك بلا ريب هو سبب المناهج المتباينة التي تقدم في كل يوم ، وهو السبب الذي من أجله نرى هذه الكثرة من اختصارات» وفي الواقع كان الناس يرون اختصارات من كل نوع ، «وفكراً منتزعة من منتجات مؤلفها حين تكون تلك المنتجات مفرطة في الوفرة» : وكذلك كانت هناك قواميس كثيرة في اللغات الأجنبية ، وقاميس تاريخية وأدبية . ولكن الذي كان يطلب إذ ذاك هو من نوع آخر ، أى قواميس للفنون وللتجارة وللجغرافيا . وكان المرغوب فيه قاموساً يحتوى كل القواميس الأخرى ، ويكون أهلاً لإرضاء شره المعرفة الذي كان يهيج العقول . وكان المثل الأعلى لهذا القاموس ، أن يكون عالمياً وسهل الحمل ، وإذا كان هذا مستحيلاً ، وكان ثقيراً فليكن ذلك ، ولكن ليكن عالياً .

كانت دائرة المعارف الفرنسية الأولى إذن تتجاوب مع حاجة العصر أصدق التجاوب ، إذ أنها كانت مهدفة إلى أن تكون في الوقت ذاته إنتاجاً علمياً وتعليمياً ، وكانت غايتها تلخيص جميع المعرف التي وصلت إليها البشرية عند منتصف القرن الثامن عشر في مشكلات العلم والفن والأدب والفلسفة والسياسة : ومن ثم

طبعياً ما دام أن فولتير ومونتيسكيو ، وفونتيينيل ،
ومارمونتييل ، ودوكلار ، ودولبات قد وعدوا بإسهامهم
فيها ..

غير أن هذا البريق المbagت لم يكن ليغري ديدير و
لأن أسماء أولئك الأعلام المفرطة في السطوع كانت
تبعد على الاحتياط من شهرتهم ، وتندى بعدم مداومتهم
على المساهمة في ذلك العمل المرهق . ومن ثم فإنه كان
يعتمد بصورة أدق على علماء أقل شهرة حيناً ، وأسماء
خافتة أحياناً مثل دوبانتون ، ودومارسييه وصديقه جان
چاك روسو الذي كان في ذلك الحين يوشك أن يكون
مجهولاً ، والذى عرفه ديدير واتصل به منذ قدمه إلى
باريس في سنة ١٧٤٢ . وعن طريق روسو ظفرت
دائرة المعارف بإسهام كوندياك الفيلسوف الحنفي
المعروف . ومن إلى أولئك وهولاء من مختلف العقليات
ومتباني الثقافات . ولكن ديدير على الأنصاص كان
يعتمد على نفسه ، وكان يقول على أن يقوم وحده
بكتابة المواد التي كان غيره من الكتاب يتبعون مواجهتها
أو يتحرجون من الخوض فيها .

غير أن هذا الانطلاق الباهر اللامع الذي كان
يحمل بين طياته أبهى مظاهر النجاح لم يدم طويلاً
لأنه لم يلبث أن توقف فجأة حين اعتقل ديدير في يولية
من سنة ١٧٤٩ بسبب تلك الفصوص الجريئة التي نشرها
فأثارت الرأى العام ، وذلك مثل : « نزهات الارتباي »
و « كفاية الدين الطبيعي » و « رسالة عن المكفوفين
يستفيد منها المبصرون » وقد أخذ عليه في هذه الرسالة
الأخرقة أنه يدعوه للمنهج الحسى الذي يقول به
كوندياك ، ولكن هذه في الحقيقة لم يكن سوى مسوغ
لتذرع به أولو الأمر للترجع به في السجن ، لأنه أهان فيها
أحد ذوى الخل والعقد في ذلك الحين . ولما رأى
الناشرون ما حل بديدير ، وبالتالي ما حل بموسوعتهم
العظمى هرعوا إلى الوزير الواسع الأفق دارچسانون
ورجوه أن يدخل في اعتباره الحالة الأسفية التي انجلروا

في حاجة إلى المال ، فقد قبل هذا الرقم مؤقتاً ووعد
بالقيام بهذه المهمة على خير ما يمكن .

غير أن المهيمنين على هذا المشروع لم يلتبوا أن
تبينوا أن هذا القاموس الإنجليزي الذى كانوا يعتزون
ترجمته ظاهر النقص ، وأنه رجع في كثير من جوانبه
الأساسية ، فعدلوا عن فكرة الترجمة تمهياً
وصمموا على وضع موسوعة خاصة بهم وقرروا
الآن يستعرضوا من الأجانب شيئاً آلة ، وأن يسترشدوا
فقط بـ « القاموس التاريخي والنقدى » تأليف بيير بيل
الذى ظهر في سنة ١٦٩٧ والذى كان متاز على الأنصاص
بروح الاستقلال عن الدين والسياسة :

ولما أمعن ديدير في التأمل ، وتعمق في تقدير
هذا العمل الخطير الذى يقوم به ألغى أن المفو المتواصل
الذى تخاطب فيه العلوم خطوات واسعة ، يفرض عليه
أن يتخذ له معاوناً في إدارة هذا المشروع ، فاستقر رأيه
على اختيار صديقه دالامبر عضو مجمع العلوم ، وكان
الإجماع إذ ذاك يوشك أن يكون منعقداً على أنه أول
شخصية رياضية في أوروبا ، فكان إسهامه في هذا المجهود
عوناً عظيماً على النجاح المادى لدائرة المعارف ، كما
كان يارز الأثر في الحصول على الحررين العلميين
وتوجيههم . ولا غرو فقد كان دالامبر دائم الاختلاف
إلى أشهر منتديات القرن . الثامن عشر . كمتذى مدام
دو ديفان التى كانت تستقبل أرفع طبقات المجتمع ،
وكانت تحب دالامبر كثيراً ، وتعلمل على نجاحه في
علم الكتابة والتأليف ، وكتبت الفلسفة الذى كان
منزه في منزل مدام چوفران ، فلم يكدر دالامبر
يصطحب صديقه إلى هذين المنتديين حتى سرت
فضائحه المجتمعين فيما ، وسرعان ما وجدت دائرة
المعارف التأييد والتشجيع في كلا المنتديين ، ولم تلبث
أن ظفرت في ثانهما بوئتها الأولى إلى . كانت بمثابة
ضمان ضد التهمق أو التعرّ أو الوقوف ، وكأن ذلك أمراً

إليها بسبب اعتقال ديدир و ، وطلبوا إليه أن يمنع عن ابنته ذلك العمل الذي هو أجمل وأفعى ما قامت به الأوساط المثقفة وزاؤله الناشرون حتى الآن . وليس هذا فحسب ، بل إن ديدير و ذاته تظلم من ذلك الاعتقاد بوصف أنه مدير لدائرة المعارف ، وقد بذل دارچانسون جهده عند الملك حتى ظفر له بحرفيته ، فغادر السجن في نوفمبر من سنة ١٧٤٩ .

وعلى أثر ذلك اشتد الشغف بتأثير المعرف أكثر من ذي قبل، فانتهز الناشرون هذه الفرصة الذهبية وقدفوا بين الرأى العام بفكرة جمع الاشتراكات مقدماً، فنجحت نجاحاً باهراً. وظهر المجلد الأول في أول يوليولية من سنة ١٧٥١ في جو من الحفاوة والحماسة التي تشبع الجميع.

غير أن هذه الحرارة من جانب بيئة أحرار الفكر لم تثبت أن قوبلت من جانب رجال الدين وخصوصاً الفلاسفة بهجوم قاسٍ أحدث رد فعل شديد العنف كأنه صدمة عصبية مبالغة نجم عنها أول الأمر حكم في يناير سنة ١٧٥٢ يقضي بوقف توزيع المجلد الثاني أعقابه حكم آخر في فبراير من نفس السنة من مجلس الدولة يقضي بإعدام المجلدين الأول والثاني . وعلى أثر ذلك نصح قولتير لديمير وبقية زملائه بالهجرة إلى برلين ليتابعوا العمل في إتمام دائرة المعارف هناك بعد أن ضاقت بهم فرنسا على رحوبتها ، ولكن ديمير ورفاقه أبوا الرحيل ، وصمموا على استئناف السير في إعداد المواد إلى أن تنسحب الفرصة بالنشر ، وجعلوا يعملون في نشاط منذ صيف ذلك العام دون أدنى يأس أو قنوط ولم تثبت النساء أن حققت أحلامهم فألغى الوزير دارچانسون قرار الحظر والمصادرة في سنة ١٧٥٣ . وفي نوفمبر من ذلك العام ظهر المجلد الثالث مصدراً بمقدمة معتدلة دجنتها يراعاة دالامبر الذي كانت الأوساط الدينية والجهات المحافظة تعتبره أقل خطراً من ديمير .

وفي سنة ١٧٥٤ ظهر المجلد الرابع ، وعلى أثر ظهوره
أخذت مهاجعات اليسوعيين تبدو واضحة عنيفة وتبعتها
حملة من النقد القاسي الذي امتد على تلك الموسعة
ومحررها من أعداء الفلسفة ك « فريرون » وأمثاله
ومن الخايدين كالأب رينال وأخرايه ، ومن أصدقاء
الفلسفة ك « جرم » .

ولما اشتتد المتابع المعنوية والمادية على ديدير و ،
هدد بالاستقالة ، ولكن الناشرين سارعوا إلى استرضائه
بتحسين شروطهم معه فقبل الاستمرار في العمل :
وفي سنة ١٧٥٥ ظهر الجلد الخامس ، وعلى أثر
ظهوره تجددت مهاجمات «فريرون». وفي سنة ١٧٥٦
ظهر الجلد السادس . وفي سنة ١٧٥٧ ظهر الجلد
السابع ، ولكن الزمن كان قد بدأ يتوجه لأحرار الفكر
إذ أنه في ينابير من تلك السنة كانت حادثة الاعتداء على
حياة الملك لويس الخامس عشر قد وقعت ، فدفع ذلك
الحكومة إلى أن تتخذ إجراءات قاسية ضد النشر ،
وأن تشدد النكير على التسامح والمساخن ، وأن تعتبرهم
مسئولين عن كل تجزؤ على العرش بالعمل أو بالقول
أو بالكتابة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى قد
اشتعل هيب حملة اليسوعيين العنيفة التي كان ولی
العهد يقف من ورائها يؤيدوها بالمال والسلطان . وفي
هذه الآونة انتهز أولئك الخصوم فرصة الطغيان المواتية
فقدموها إلى القضاة كتاب هيلفيسيوس الحرر الفلسفى
في دائرة المعارف ، وعنوانه «عن الروح» وطلبوها لإدانته
محجة أنه كتاب مادى ينكر الروحيات والعقليات . وفعلاً
أدين هذا الكتاب وقضى بإحرافه في سنة ١٧٥٨ وقد
نجم عن ذلك أن ارتigue الناشرون والحرزون ارتياعاً شديداً
وسرعان ما تخلى عن المساهمة في الدائرة في السنة ذاتها
مارمونتيل ، ودولكلو ، وأعلن دالامبر أنه قد صمم على
ترك العمل فيها . وكذلك هجرها جان چاك روسو وإن
لم يكن تخلي هذا الأخير بسبب الفزع بل بسبب اختلافه
مع ديدير و إلى حد القطيعة .

فكرة إظهار دائرة المعارف سراً توصل إلى منع ديديرو إذنًا رسمياً بنشر ألف لوحة عن العلوم والفنون العقلية والميكانيكية .

وفي أوائل سنة ١٧٦٣ ظهر المجلد الأول من هذه اللوحات . وفي ذلك الحين نصح فولتير والسفير الروسي ديديرو بالرحيل إلى روسيا لإتمام دائرة المعارف بين ربوعها ، فرفض هذا العرض وأعلن إلى فولتير أن المجلدات الأخيرة من هذه الموسوعة هي تحت الطبع . وفي الواقع أن سنة ١٧٦٣ انقضت في طبع تلك المجلدات سراً . وهذا أمر طبيعي ما دام أن رئيس الشرطة ومدير النشر قد أغمضا عيونهما عن هذا الأمر . وقد ساعد على صفاء الجو أن غضب القصر على اليهوديين قد بدأ يكشر عن أنفاهه .

وفي سنة ١٧٦٤ وقعت له حادثة أرهقت قلبه بالألم وكادت تقضي على حماسه قصاءها الأخير . وبحملها أنه تبين أن لبريتون الطابع قد خلع على نفسه منزلة الرقيب فجعل يراجع فصول ديديرو ويحذف منها ما يظن أنه خطأ . فلما تبين ذلك لディديرو ، وقع على رأسه وقوع الصاعقة وقال هذه العبارة المؤثرة وهي : «إنني جرحت جرحًا مميتاً سينتهي بي إلى الرمس» . وعلى أثر هذا توترت العلاقات بينه وبين ذلك الطابع . وفي هذه الأثناء عندما علمت كاترين الثانية إمبراطورة روسيا بارتباك حاليه المالية ، اشتربت منه مكتتبته الفخمة على أن يظل يستعملها طول حياته . وهكذا عندما تحرر من شواغله المالية ، استطاع أن يكتب في يولية من سنة ١٧٦٥ هذه العبارة التي تشع منها أنوار السعادة فيقول : «في مدى ثمانية أيام أو عشرة سأرى نهاية هذا المشروع الذي يشغلني منذ عشرين عاماً» .

وفي الواقع أن المجلدات العشرة الأخيرة كانت قد طبعت سراً وإلى جانبها أربعة مجلدات من أحد عشر

وفي فبراير من سنة ١٧٥٩ استصدر خصوص الفلاسفة حكماً يأمر بأن تفحص المجلدات التي ظهرت من دائرة المعارف لجنة مؤلفة من ثلاثة من اللاهوتيين ، وثلاثة من الحامدين ، وأثنين من أساتذة الفلسفة ، وعضو من الجمع العلمي . وفي شهر مارس قرر مجلس الدولة إلغاء الإذن الذي يسمح للناشرين بالاستمرار في طبع دائرة المعارف رغم دفاعهم المستميت .

بيد أن ديديرو - رغم هذا الإجراء المنشور في ظاهره - الطغىاني في حقيقته - لم ييأس . وسرعان ما نظم حفلة عشاء عند الطابع لبريتون دعا إليها دالامبر والفارس دى جوكور والناشرين . وبعد النقاش والتحقيق وتقليل الأمور على وجوهها المختملة ، استقر رأيهما - فيما عدا دالامبر - على الاستمرار في إخراج دائرة المعارف سراً . وفي يولية من سنة ١٧٥٩ أثناء تغيب ديديرو في مسقط رأسه مناسبة وفاة والده ، صدر قرار مجلس الدولة يأمر الناشرين برد جميع الاشتراكات في الموسوعة إلى أربابها ، وأعلن ذلك على نطاق واسع ، ولكن لم يتقدم أحد من المشتركين لتسليم اشتراكه . وفي أكتوبر من سنة ١٧٥٩ ، عندما رأى دالامبر هذا الإصرار من جانب القصر والحكومة على ملاحقة دائرة المعارف والقائمين بها ، تخلى عن العمل فيها نهائياً . فكان ذلك بمثابة إغلاق الأبواب الظاهرية التي تشع منها دائرة المعارف . وحينئذ لم يبق إلا التحايل على إخراجها سراً ، فجعل ديديرو وآخوانه المتعاونون معه يبذلون جهودهم في نشر المجلدات العشرة الباقية منها بطريقة خفية . وما ساعد على نجاح هذه الخطة في وسط تلك الحن الطغىانية المحيطة بـ ديديرو وأعوانه أن دى سارتن رئيس الشرطة الجديد - وهو إذ ذاك بمثابة وزير الداخلية - كان صديق ديديرو منذ خمس وأربعين سنة : وفوق ذلك فإن مالزيزير المتوفى الممتاز كان مدبرًا للنشر ، وكان تحب ديديرو وقدره ويزدله حياته ومعونته . ولذلك يحتال مالزيزير على تحقيق

الفوضى المألف في القواميس الأجنبية ، فقد كان من الطبيعي أن يسلك سبيلاً آخر غير النظام الأنجليزي الذي جرت عليه القواميس حتى ذلك الحين . ولقد انتزع مخزرو هذه الموسوعة هذا النظام الجديد من حاجة العصر وصاغوه على نموذج المبدأ الرئيسي العام الذي ساد القرن الثامن عشر كله ، وهو أن مجموعة معارفنا تتجه كلها دائمًا إلى حاجاتنا سواء منها ما دعث إليه الضرورات أو الكماليات أو الياقات أو الأهواء . وقد صور ذلك المفكر ان الممتازان بوب الإنجليزي وليسينغ الألماني في عبارة شهيرة ربما يكون توافق الخواطر قد لعب فيها دوراً هاماً وهي « إن أ Nigel موضوعات دراسة الإنسان هو الإنسان » :

ومن ثم فإن ديدير وعندما يصل إلى مادة « دائرة المعارف » يتولى الدفاع عن النهج الأساسي لموسوعته ، وفي عزم قوى هو يضع الإنسان في مركز الكون العام :

وإذن فأوضح المبادئ التي ترشد إلى توثيق العرى بين مواد هذه الموسوعة، وأيسر الطرق التي تنتهي إلى هذه الغاية هو وضع تاريخ معارفنا على أساس تحليل الملكات الرئيسية الثلاث التي تشاهد لدى الإنسان أى العقل والذاكرة والخيال ، وهى نفس أقسام دائرة المعارف : فالعقل يخلق الفلسفة ، والذاكرة تسجل التاريخ ، والخيال يبتكر الفنون الجميلة . والفلسفة والتاريخ والفنون تنقسم بأدوارها إلى أقسام : ولذلك كانت هناك في دائرة المعارف إشارات مسجلة بعد كل كلمة من القاموس تسمح بربط الورقة بالفن ، والفن بالفن ، والفن بالسوق المركزية التي تظل هي الواقعية البشرية الأكثر بساطة وهى وجود الملكات الإنسانية ومن ثم فإن الأستاذين العظيمين أى أستاذى الفكر والعلم الأوروبيين وهما : لوک وبیکون ، قد طبعاً توجيههما على صفحة الفكر المنظم بدائرة المعارف :

مجلداً من اللوحات السالفة الذكر ، ولم تبق سوى حيلة واحدة لإعلان انتهاء الطبع ولضمان تحقيق التوزيع : وأخيراً عثر على هذه الحيلة التي تظاهر الرأى العام الأوروبي بقبوتها . ويجملها أن الطابع صمويل فوش السويسري قد أعلن في مدينة نوشاتيل في يناير من سنة 1776 أن المخلدات الثامن وما بعده قد طبعت في سويسرا ، وأنها تحت تصرف المشركين :

ومما لا ريب فيه أن هذه الحيلة إلى لم ينخدع بها أحد ، والتي عندما لوت عنان القانون ، وتظاهرت باحترامه قد تسببت في أن تصلك دائرة المعارف إلى نهايتها .

وأياً ما كان ، فإنهما في سنة 1772 ، وبعد إحدى وعشرين سنة من تاريخ بدشتها قد تكونت أخيراً من سبعة عشر مجلداً من النصوص ، وأربعه عشر مجلداً من اللوحات :

من هذا يتبين جلياً أن تلك المعارك والمحاولات كان لها أعظم الأثر في بروز هذه الموسوعة وخلودها وفي هذا يقول أحد الكتاب الممتازين ما نصه : « من المحتمل أنه لو لم تكن كل هذه المصاعب ، وتلك المعارك ، وذلك الانتصار النهائي الذي لم يكن انتصاراً إلا بشرط لا يظهر على أنه انتصار لكان من الممكن أن تظفر دائرة المعارف بأهمية أقل ، لأن الصفة الفاجعة قد ظلت مرتبطة بتاريخها وهى أنها كافحت ضد القديم من حيث الفكر والقوى » :

منهج دائرة المعارف

إن أهم ما يبرز جوانب الابتكار في دائرة المعارف هو المنهج الذي استعمله فيها المهيمنون عليها لعرض مجموعة المعارف البشرية وتسليتها في نظام شامل محكم حسب الغاية التي رموا إليها من وضع هذه الموسوعة ولما كان هذا العمل الجماع قد يتنافى بفطنته مع التفرقة

المبادئ العامة لدائرة المعارف

إن ما قدمناه من تاريخ نشأة دائرة المعارف وتكوينها ومنهجها خلائق بأن يبرز لنا المبادئ العامة التي كان لها الأثر الأول في توجيه القائمين بأمر هذه الدائرة. وهذا شيء طبيعي ما دام أن هؤلاء الأعلام الذين وضعوا أو ساهموا في وضع أساس مبادئ العصر كله : كان أولئك الموسوعيون على أتم معرفة بغايتهم العليا ، وهي تتلخص في عمل إحصاء شامل لكل ما تناولته المعرفة البشرية على وجه البساطة . ولكن يصلوا إلى هذا الهدف يجب أن يختبروا كل شيء ويقلبوه على جميع وجوهه بلا استثناء أو إبقاء على كبير أو صغير مع الاحتفاظ بالوفاء التام للعقل والطبيعة ولقد اقتضت هذه الطريقة منهم أن يحطموا الأوثان القديمة التي يستحبها العقل ، وأن يرزووا للعيان جميع القيم الحديثة ، ولم يشعروا أن يتلاؤا بين ردهات الماضي ودهاليزه المظلمة ومنعرجاته الملتوية بمحاجأ عن أخطاء الأقدمين لوصفها وتصويرها ووضع أيدي القراء عليها إلى غير ذلك مما يضيع الوقت النفيس ، ويفوت الفرص المواتية ، وإنما اعتزموا أن يكونوا قبل كل شيء نقاداً وبناء . ومن هذه المبادئ أن كل ما في دائرة المعارف يجب أن يفيد في حيوية ونشاط وحداثة ، وأنها ينبغي أن تتحلص من كل عتيق أو رجعى أو متشتث بأهداب القدم :

هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الذي فهمه المهيمنون على دائرة المعارف ، ولا سيما ديدورو ، هو تعطش كل طبقات المجتمع إلى المعرفة . غير أن الأكثرية الغالبة من أولئك القراء النهممن كان تتصدّرها المعرفة الأولية ، وأن القائمين بأمر الدائرة قد حسّبوا حساب هذا النقص ، فعالجوا العلوم والفنون بطريقة تفترض أنه ليس هناك أية معرفة أولية ، وعرضوا ما كانت معرفته هامة في كل مادة لا أكثر . وقد حموا مصاعب قوائم الاصطلاحات لكي لا تكون مربكة في أي موضوع ، وترجموا النصوص التي لم تعد غير مفهومة . وبالإجمال أرادوا أن يكتبوا مؤلفاً يمكن أن يحل محل مكتبة شاملة لجميع الأنواع بالنسبة إلى إنسان جميع الطبقات . وهو شامل كذلك لجميع الأنواع بالنسبة إلى العالم المخترف بحيث يكون حسبه القيام بحركة بسيطة لتناول الكتاب وقضاء بعض ثوان للبحث عن

الإغصاء عنه ، فهـى — دون أن تهاجم مهاجمة صريحة بل بوساطة منهـجها الـلـوـبـيـ الـذـىـ أـعـنـاـ إـلـيـ آـفـأـ — قد نـثـرـتـ فـىـ كـلـ خـطـوـةـ منـ خـطـوـاتـهاـ عـنـاصـرـ الـرـيـبـةـ وـالـمـرـدـ الـتـىـ اـنـتـشـرـتـ وـعـمـلـتـ عـلـمـهـاـ فـىـ جـمـيعـ الـأـصـقـاعـ الـأـورـوبـيـةـ .ـ وـفـوـقـ ذـلـكـ فـإـنـ بـعـضـ عـضـاءـ الـوزـراءـ الـمـصـلـحـينـ كـهـ «ـ تـورـجوـ »ـ وـفـرـيقـاـ مـنـ أـرـبـابـ الـظـرـيـاتـ فـىـ الثـوـرـةـ الـفـرـنـسـيـةـ قـدـ تـغـدوـ مـبـادـئـ دـائـرـةـ الـمـعـارـفـ وـانـهـلـواـ مـنـ مـعـيـنـهـاـ أـفـكـارـاـ خـصـيـصـةـ نـافـعـةـ .ـ وـلـاـ غـرـوـ فـإـنـ هـذـهـ الدـائـرـةـ تـعـتـبـرـ بـإـجـمـاعـ الـبـاحـثـينـ الـأـدـقـاءـ — طـلـيـعـةـ الـصـفـ الـأـوـلـ مـنـ صـفـوفـ الـثـوـرـةـ الـفـرـنـسـيـةـ ،ـ لـأـنـهـاـ نـهـيـتـ الـأـذـهـانـ إـلـىـ تـعـصـبـ الـقـسـسـ وـقـسـوـةـ الـأـشـرـافـ وـظـلـمـهـمـ الـاجـتمـاعـيـ ،ـ وـرـغـبـتـ النـاسـ فـىـ حـبـ الـاستـطـلاـعـ وـبـغـضـتـ إـلـيـهـمـ الـكـسـلـ وـالـخـلـوـلـ وـالـذـلـ وـالـمـهـانـةـ حـتـىـ قـالـ عـنـهـاـ بـعـضـ الـأـدـبـاءـ :ـ «ـ إـنـكـ إـذـاـ دـخـلـتـ حـيـرـةـ فـيـهاـ دـائـرـةـ مـعـارـفـ «ـ دـيـدـيـروـ »ـ خـيـلـ إـلـيـكـ إـنـكـ تـسـمـعـ إـلـىـ جـانـبـ مـجـلـدـاتـهاـ طـيـنـ الـأـرـوـاحـ الـمـتـمـرـدـةـ تـدـعـوـ إـلـىـ الـثـوـرـةـ »ـ .ـ

هـنـاكـ ظـاهـرـةـ أـخـرـىـ مـنـ ظـواـهـرـ هـذـهـ الـمـوـسـوعـةـ لـاـ يـنـبـغـيـ إـغـفـالـهـاـ ،ـ وـهـىـ أـنـهـاـ — إـلـىـ جـانـبـ اـعـتـيـارـ الـفـرـدـ وـحـاجـاتـهـ مـرـكـزاـ لـدـرـاسـتـهـاـ — قـدـ عـمـلـتـ عـلـىـ تـنـمـيـةـ إـدـرـاكـ الـفـكـرـ الـاجـتمـاعـيـ بـصـورـةـ تـسـتـرـعـيـ الـاـنـتـبـاهـ .ـ

حـقـاـًـ أـنـهـاـ عـنـدـمـاـ جـعـلـتـ تـدـرـسـ الـإـنـسـانـيـةـ ،ـ لـمـ تـعـلـمـ أـنـهـ لـاـ يـنـبـغـيـ الصـدـورـ عـنـ الـفـرـدـ ،ـ بـلـ عـنـ الـجـمـاعـةـ كـمـاـ هـوـ مـعـنـىـ عـلـمـ الـاجـتمـاعـ الـحـدـيـثـ ،ـ وـلـكـنـهـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ قـدـ مـهـدـتـ الـطـرـيـقـ ،ـ وـأـعـدـتـ الـعـقـولـ لـنـشـأـةـ عـلـمـ الـاجـتمـاعـ بـالـمـعـنىـ الـمـعـاـصـرـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ .ـ وـفـىـ الـوـاقـعـ أـنـ ثـرـةـ هـذـاـ إـلـيـادـادـ لـمـ تـلـبـتـ أـنـ ظـهـرـتـ وـبـدـأـتـ تـبـسـجـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ حـتـىـ آـتـ أـكـلـهـاـ .ـ وـمـنـ آـيـاتـ ذـلـكـ أـنـهـ فـىـ سـنـةـ ١٧٦٧ـ أـعـانـ آـدـمـ فـيـ جـسـونـ فـىـ مـوـلـفـهـ الـذـىـ عـنـوانـهـ «ـ مـحاـولـةـ فـىـ تـارـيـخـ الـمـجـتمـعـ الـمـدـنـىـ »ـ أـنـ كـلـ الشـهـادـاتـ الـتـىـ نـتـلـكـهـاـ مـنـذـ أـقـدـمـ الـعـصـورـ إـلـىـ أـحـلـشـهاـ ،ـ وـالـمـحـمـوـعـةـ مـنـ كـلـ أـجزـاءـ الـأـرـضـ لـاـ تـمـثـلـ أـنـبـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ إـلـاـ تـحـتـ صـورـ طـوـائـفـ وـجـمـاعـاتـ .ـ

الـكـلـمـةـ الـمـراـدـةـ .ـ وـعـنـدـئـلـ يـصـبـرـ أـجـهـلـ النـاسـ مـنـ أـكـثـرـهـمـ تـعـلـمـاـ .ـ وـمـنـ أـمـثـلـهـ ذـلـكـ تـلـكـ الـأـقـصـوـصـةـ الـشـائـقـةـ الـتـىـ سـخـلـشـنـاـ عـنـهـ فـوـلـتـيرـ فـيـنـبـئـنـاـ بـأـنـهـ بـيـنـاـ كـانـ الـمـلـكـ لوـيـسـ الـخـامـسـ عـشـرـ يـتـعـشـىـ فـىـ قـصـرـ تـرـيـانـوـنـ بـفـيـرسـايـ فـىـ صـحـيـةـ قـلـيلـةـ وـكـانـوـنـ يـتـحـدـثـوـنـ عـنـ الـصـيـدـ وـعـنـ الـبـارـوـدـ ،ـ لـاـذـ بـهـمـ يـلـمـحـوـنـ أـنـهـ لـاـ يـعـرـفـ أـحـدـهـمـ بـالـضـبـطـ مـنـ أـىـ شـيـءـ يـتـكـونـ الـبـارـوـدـ ،ـ وـأـنـ مـدـامـ دـىـ بـوـمـبـادـورـ ،ـ لـمـ تـكـنـ تـعـرـفـ مـنـ أـيـنـ تـأـقـىـ الـأـصـبـاغـ الـحـمـرـ الـتـىـ تـزـينـ بـهـاـ وـجـنـتهاـ ،ـ وـلـاـ كـيفـ تـصـنـعـ الـجـوـارـبـ الـحـرـيرـيـةـ الـتـىـ تـلـبـسـهـاـ .ـ وـلـكـنـ هـذـاـ الجـهـلـ كـانـ لـهـ دـوـاـءـهـ فـلـمـ تـلـبـتـ الإـشـارـةـ أـنـ صـدـرـتـ ،ـ وـسـرـعـانـ مـاـ أـحـضـرـ الـخـدـمـ مـجـلـدـاتـ دـائـرـةـ الـمـعـارـفـ وـاسـتـعـلـمـ الـحـاضـرـوـنـ عـنـ الـبـارـوـدـ وـالـأـصـبـاغـ ،ـ وـالـمـنـاـوـلـ الـتـىـ تـنـسـجـ عـلـيـهـاـ الـجـوـارـبـ .ـ وـعـلـىـ أـثـرـ ذـلـكـ انـقـضـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ الـحـاضـرـيـنـ عـلـىـ الـمـحـلـدـاتـ انـقـضـاـضـ بـنـاتـ «ـ لـيـكـومـيدـ »ـ عـلـىـ حـلـىـ اوـدـيـسـوـسـ ،ـ وـفـىـ نـفـسـ الـلـحظـةـ الـتـىـ بـعـدـهـ كـانـ يـبـحـثـ عـنـهـ ،ـ فـقـهـاـ وـجـدـ الـخـصـومـ الـنـتـائـجـ الـحـاسـمـةـ لـقـضاـيـاهـمـ ،ـ وـفـيـهـاـ قـرـأـ الـمـلـكـ حـقـوقـ تـاجـهـ .ـ وـفـيـهـاـ كـانـ الـحـاضـرـوـنـ مـسـتـمـرـيـنـ فـىـ الـقـرـاءـةـ قـالـ الـكـوـنـتـ دـىـ كـ .ـ بـصـوتـ عـالـ :ـ «ـ مـوـلـاـيـ إـنـكـ بـلـدـ سـعـيـدـ بـأـنـ يـوـجـدـ فـيـ عـهـدـكـ رـجـالـ قـادـرـوـنـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ جـمـيعـ الـفـنـونـ ،ـ وـعـلـىـ نـقـلـهـاـ إـلـىـ الـأـجـيـالـ الـقـادـمـةـ ،ـ لـاـذـ كـلـ شـيـءـ هـنـاـ مـنـ طـرـيـقـ صـنـعـ الـدـبـوـسـ إـلـىـ طـرـيـقـ سـبـكـ مـدـافـعـكـ وـتـصـوـيـبـهـاـ ،ـ أـىـ مـنـ الـلامـتـنـاهـيـ فـيـ الصـغـرـ إـلـىـ الـلامـتـنـاهـيـ فـيـ الـكـبـيرـ »ـ .ـ

مـلـاحـظـاتـ وـنـقـدـ

سـنـرـىـ فـيـ هـذـهـ الـعـجـالـةـ مـاـ لـدـائـرـةـ الـمـعـارـفـ مـنـ قـيمـةـ وـمـاـ عـلـمـهـاـ مـنـ مـلـاحـظـاتـ ثـمـ نـخـتـمـهـاـ بـالـأـثـرـ الـقـيمـ الـذـىـ تـرـكـهـ فـيـ طـبـقـاتـ الـشـعـبـ الـمـتـبـاـيـنـةـ مـنـذـ ظـهـورـهـاـ حـتـىـ الـآنـ .ـ كـانـ طـموـحـهـاـ الـأـوـلـ ،ـ أـوـ هـدـفـهـاـ الـأـسـاسـيـ أـنـ تـحـدـثـ اـنـقـلـابـاـًـ تـامـاـًـ فـيـ طـرـيـقـ التـفـكـرـ الـعـامـ ،ـ وـقـدـ نـالـتـ مـنـ هـذـهـ الـغـاـيـةـ قـسـطاـًـ كـبـيرـاـًـ لـاـ يـسـهـانـ بـهـ وـلـاـ يـعـكـنـ

إلى أشياء بخواه شاقة ، وتأملها وضيع ، وعرضها عسر ، والاتجاه فيها محل بالشرف ، وعدها غير قابل للإحصاء ، وقيمتها ضئيلة .. وكان ذلك وهما يتوجه إلى ملء المدن بمعتقدلين متكبرين ومتأملين غير مفهدين ، وملء القرى بطغاء صغار جاهلين عاطلين مترفعين » وإذا كان حقاً أن الفنون العقلية تفوق الفنون الآلية بسبب العمل العقلي الذي تتطلبه الأولى ، وبسبب صعوبة الإجادة فيها فإن من الحق أيضاً أن الثانية تفوقها بسبب فائدتها ، وأن أولئك الذين نحن مدينون لهم بإتقان الساعات هم متساوون في الاحترام مع الذين أدخلوا الكمال في علم الجبر « أو هي تقول أيضاً في قوة أعظم : « وضعوا في إحدى كفتي الميزان ، الفوائد الواقعية لأسس العلوم ، وأشرف الفنون ، وفي الكفة الأخرى فوائد الفنون الآلية ، فإنكم ستجلدون أن الاعتبار الذي قدم إلى الأولى والذى قدم إلى الثانية لم يكن قد وزع حسب علاقت كل منها بفوائده ، وأنه قد أثني على الرجال الذين انشغلوا بدفعنا إلى الاعتقاد بأننا سعداء أكثر من الرجال الذين انشغلوا بتحقيق أن نكون سعداء في الواقع » .

أصدقاء الموسوعة وخصوصيتها

رأينا فيما أسلفناه من تاريخ دائرة المعارف عدداً من أصدقائها الذين كان لهم في حياتها وحياتها أثر عملي بارز ، ورأينا أن من هؤلاء الأصدقاء « المركب دارجان سون » ذلك الوزير الشجاع الذي وافق على أن تهدى إليه هذه الموسوعة قبل أن يتحقق من مصيرها . ومنهم أيضاً صديق ديدир و القديم الحميم « دى سارتين » رئيس الشرطة في ذلك الحين . وكذلك « مالزيير ب » الذي ظل مديرآ للنشر من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٦٣ والذي تولى الحياة الصريحة لهذه الموسوعة ومنعها من أن تهوى إلى العدم مرات متعددة ، والذي تحدثنا ابنه ديدير و في مذكراته أن الفدائية والشجاعة قد بلغتنا منه إلى حد

وأخيراً يمكن أن نعتبر من التجاريد المفید ذلك الجانب العظيم الذى خصصته دائرة المعارف للفنون والمهن والحرف . حقاً إنها في هذا أيضاً لم تزد على أنها تابعت التيار العام المعاصر لها الذى كان متوجهاً بكل كيانه إلى الناحية العملية الفياضة بالفنون النافعة في الحياة ولكنها - بتقويتها هذا القسم وتنميته إياها كما فعلت - كانت بمثابة المرشد الأسسى لمن يجهلون هذه الفنون كما عملت على مضاعفتها لخصوصها وإنمايتها بسبب إذاعتها إياها . وإذا فدائر المعارف كانت تدور في وسط حركة عامة ، هي تثيرها وتنجحها رفعه . إنها ستعزز كل قرائتها بتلك الفنون الميكانيكية التي كان المفكرون الخالص يجهلونها ، أو يحتقرونها في العصر الذى كانت فيه الميتافيزيقاً وحدها تبدو جديرة بتأملهم ، فكان المساهمون فيها يدخلون الحوانين ، أو يذهبون إلى المصانع فيرون كيف يكسو الجلد مجلداته ، وكيف يصنع النجار صناديقه ، وكيف ينفتح الزجاج في زجاجه ، وكيف يهاجم المدفع فحمله . ولا غرو فإن ديدир - وهو ابن صانع سكاكين في مدينة لانجر - قد تعهد بأن ينظر ويستجوب ، فكان يحضر معه رسامين ليصوروا أبسط القطعقصد الانتهاء إلى أكثر الآلات تعقداً .

وفي الحق أن هذا التحول الفكري الذى كان يتوجه نحو الفنون ، لم يكن له بد من أن يصطحب معه تغيراً اجتماعياً لأنه عندما ترتفع قيمة الفنون الميكانيكية يجب منطقياً أن تكون حالة الذين يزاولونها أكثر ارتفاعاً . ودائرة المعارف تشهدنا هذا الترتيب الجديد للقيم إذ تقول : « إنكم لن تحترروا الصناع بعد اليوم ، فهم أقربنا ، بل هم أرفع منا ، فمن أين كان يأتي ازدراوكم ؟ قد يكون ذلك آثياً من حقد مفهم ولاشعورى . إن احتقاركم قد أدى من فكرة زائفة إذ كان الناس يعتقدون أنهم حين كانوا يزاولون ، بل حين كانوا يدرسون الفنون الرفيعة ، كانوا يسفون أو ينحطون

جيبيه خصبة يقضيها . ومن المعروف أن جان جاك روسو يرى أن الطبيعة قد وصلت في صنعها إلى أسمى آواج الجمال والانسجام ، وأن يد الإنسان هي التي أحالت الجمال دمامنة والانسجام تناوراً حتى قال عنه فولتير : إن من يقرأ روسو ، يشتهي أن يمشي على أربع وأن يقضم الأعشاب . وهذه الصورة هي التي رسمها مؤلف تلك المهزلة الساخرة .

من هذه التيارات المتعارضة التي كانت تحدق بدائرة المعارف إحداق السوار بالمعصم ، تتبين تلك التأرجحات التي تعاقت عليها من جانب القصر ، وتتبين أسباب السخط والرضا والقسوة والرحمة التي كانت تلم بها من لدن السلطة الملكية التي تعطف عليها حيناً ، وتلاحقها بالتهديد والعنف أحياناً ، والتي كانت العوامل الدينية أو السياسية تدفعها إلى الضرب على أيدي الحرريين ثم لا تلبث الشفاعة أن تتدخل فتحول دون تنفيذ ذلك القضاء على مشروع الدائرة ؛ وهكذا دوالياً حتى انتهى الأمر بانتصار أصدقاء الفلسفه على خصومهم : وتم هذا المشروع الخطير النافع . وما ساعد على ذلك الانتصار أن رجال الحكومة المستنيرين قد حرصوا كل الحرص على ألا يتسرّب ذلك العمل الجليل المشرف إلى الخارج فيتم تنفيذه في دولة أخرى ، فيكون ذلك عاراً يسجله التاريخ على فرنسا إذ يعزّو إليها الجمود وضيق الأفق والاسهانة بالعلم ؛ وفوق ذلك فإن مصلحة الدولة الاقتصادية كانت تقتضي عدم تسرب هذا المشروع إلى الخارج ، لأن رصيده من الاشتراكات والموارد الأخرى كان يزيد على مليون من الجنيهات ، فنـ الخسارة المالية أن ينتقل هذا المبلغ إلى جيوب الأجانب بانتقال المشروع إليـهم ؛ وأخيراً بقى علينا أن نبه الأذهان إلى أنه لا ينبغي الخلط بين هذه الموسوعة ودائرة المعارف الكبرى التي هي عبارة عن قاعدة عقلية عظيمة مفصلة للآداب والعلوم والفنون ، والتي نشرتها في أواخر القرن التاسع

أنه حين تسلم الأمر بتفتيش منزل ديدورو ، للاستيلاء على ما لديه من مخطوطات أنبأه بذلك السر . ولما رأى يأسه من استطاعة تهريب تلك المخطوطات الخطرة اقترح عليه أن يرسلها إلى منزله هو شخصياً لنجو من التفتيش والتعرض للإحرار أو الضياع . وقد تم ذلك فعلاً فأرسل كل ما يخشى عليه إلى منزل هذا الموظف الرسمى الشجاع الذى كان مكلفاً بالاستيلاء على تلك المخطوطات المحظورة . وذلك لعمر الحق عمل رائع من جانب شخصية رسمية مسؤولة كشخصية مالزيزير :

ومن هؤلاء الحماة البارزين مدام دي بومبادور محظوظة الملك لويس الخامس عشر التي كانت تدعى إذ ذاك بحمامة الفلسفه ، والتي كانت تعنى بدائرة المعارف عنابة فائقة ، وتدفع عنها أمام الملك دفاعاً حاراً ، ولا تخرج من أن تستقبل عدداً من المسمعين في تحريرها كـ « دالامبر » ، ودوكلو ، ومارمونتيل » .

أما خصومها فقد كانوا من جهات متعددة وكانت ضرباتهم قوية إلى حد يستوجب هذه الحماية التي أشرنا إليها آنفاً .. غير أنه من حسن حظ دائرة المعارف أن مجھوداتهم كانت مشتتة فيما بينها تشوّبها الفرقـة ويعوزها الوئام : ومن أبرز هؤلاء الخصوم الآباء اليسوعيون الذين كانوا يستمتعون بتأييد ولـيـ العهد كما المعـناـ إلى ذلك من قبل : ومنهم أيضاً الجنسيـون والخاميـ موروـ الذي أطلق على المـوسـوعـين اسم « الكاكـوكـاـكـ » ليصورـهم في صورة السـسـخـرـية والـاستـهزـاء . وكذلك فـريـرونـ الصـحـفـيـ الذي كان يـهاـجمـهمـ مـهاـجمـةـ عـنـيـفةـ فيـ صـحـيفـتهـ « السـنـةـ الأـدـبـيـةـ » وأـخـرـاًـ منـهمـ شـارـلـ بـالـلـيـسـوـ الكـاتـبـ الذي هـزـأـهمـ فيـ مـسـرـحـيـتهـ الـهـزـلـيـةـ التيـ عنـوانـهاـ «ـ الـفـلـاسـفـةـ »ـ والتيـ ظـهـرـتـ فيـ سـنـةـ ١٧٦٠ـ والـتـيـ رـسـمـ فـيهـ مـؤـلفـهـاـ بـالـلـيـسـوـ ،ـ سـاخـرـاًـ :ـ جـرـيمـ وـهـلـفـيـسـيوـسـ ،ـ وـدـيـدـيـروـ وـالـأـنـسـةـ كـلـيـرـوـنـ ،ـ وـعـلـىـ الأـخـصـ جـانـ جـاكـ روـسوـ الـذـيـ ظـهـرـ عـلـىـ مـسـرـحـ يـمـشـيـ عـلـىـ أـرـبعـ ،ـ وـيـسـتـخـرـجـ منـ

الحربيين العالميين الآخرين . ونرجو أن تتخذ دائرة معارفنا العربية هذا الطريق النشيط الذى يبرهن على حيوية السائرين فيه وإخلاصهم للعلم وتفاناتهم فى رفعه بلادهم وتقدمها وحرصهم على ألا يفوتها ركب الحضارة فى أية ناحية من نواحى المعرفة التى هي الفارق الأساسى بين الإنسان وغيره من بقية الكائنات :

عشر جمعية من العلماء وأهل الأدب المستنيرين ، والذى تكونت بين سنتي ١٨٨٦ - ١٩٠٢ من واحد وثلاثين مجلداً غير الملاحق الحديثة التى حاول علماء هذه العصور الأخيرة أن يسلوا بها ما فى الدائرة الكبرى من نقائص أو ثغرات تختلف عن المعارف العصرية التى نشأت من الكشف والمخترعات الحالية التى انبثقت من أحداث

نماذج من دائرة المعارف الأولى

قلناها من المجلدين الثاني والعشرين والثانى والثلاثين طبعة جنيف عند الناشر پوليه

مادة الطبيعة

الطبيعة اسم مؤنث ، وهى من الوجهة الفلسفية عبارة تعاقبت عليها استعمالات مختلفة ، ففى منتجات أرسطو فصل كامل عن المعانى المتباعدة التى كان الإغريق يعطونها لكلمة الطبيعة . وعند اللاتين بلغت المعانى المختلفة لهذه الكلمة عدداً أو صلها أحد المؤلفين إلى أربعة أو خمسة عشر معنى . وكذلك الأستاذ « بيل » في رسالة ألفها عن المعانى المعززة إلى كلمة طبيعة ، قد عد من تلك المعانى ثمانية جوهريات منها :

إن معناها أحياناً نظام العالم ، أو آلة الكون ، أو مجموعة كل الأشياء الخلوقة .

مادة التعصب

التعصب اسم مذكر ، وهى إنتاج ضمير زائف يسىء استعمال الأشياء المقدسة ويستعبد الدين ليول الخيال وفوضى الأهواء .

ولما كان التعصب هو التخريف عندما يصير عملياً نشيطاً ، فإننا سنشرح هذا الحماس الأعمى الخاضع

مادة الإنسان

الإنسان اسم مذكر ، وهو كائن حساس ، متأمل مفكر يسرى في حرية على سطح الأرض ، ويبعد أنه على رأس جميع الحيوانات الأخرى التى يسودها ، وهو الذى يعيش في جماعة ، والذى اخترع العلوم والفنون ، والذى لديه خيرية وشرية خاصتان به ، والذى اتخذ له سيادة ، وأصطنع لنفسه قوانين ونظم جرا .

ولإذا أقصى الإنسان أو الكائن المفكر والمتأمل من فوق سطح الأرض ، فإن منظر الطبيعة المؤثر السائى لا يكون إلا محزناً وأبكم ، فيصمت الكون ويستولى السكوت والضجر ويتحول كل شىء إلى عزلة شاملة حيث تمر الظواهر غير الملحوظة بطريقة غامضة وصماء ، لأن الإنسان هو الذى يجعل وجود الكائنات ذا أهمية ، وما دام الأمر كذلك فماذا يستطيع المرء أن يعتزم في تاريخ هذه الكائنات خبراً من أن يخضع لذلك الاعتبار ؟ ولماذا لا ندخل الإنسان في مؤلفنا (دائرة المعارف) على هيئة وضعه في الكون ؟ ولم لا نتخذ منه مركزاً مشتركاً ؟

قادراً على إطفاء النور الطبيعي ، وعلى إحداث الاضطراب في أكثر الرؤوس سلامه . وبالإجمال هو أفعى الأوبئة البشرية ، بل إن الإلحاد نفسه — وفي هذا القول كفاية — لا يحطم العواطف الطبيعية ، ولا يحمل أية لاصابة إلى قوانين الشعب ، ولا إلى أخلاقه ، ولكن التخريج هو طاغية مستبد تحض كل شيء للأمانى : وأوهامه أشد من جميع الأوهام الآخر . فالمحدث بهم بالملوء العام مدفوعاً بحبه لراحةه الخاصة ، ولكن التخريج المتعصب الناشيء من اضطراب الخيال يقلب الإمبراطوريات .. إن الجهل والبربرية يأتان بالتخريج وإن النفاق يحتفظ به في طقوس عابثة ، وإن الحاس الرائق يذيعه ، والاستفادة تخلده .

إن الحقيقة لم توجد للمتعصبين ، وهي جلية إلى حد أنها فوق جميع المتناقضات ، وهي عميقة إلى حد أن أشد المتناقضات انسعاراً لا يستطيع أن يهز شيئاً من قوتها .

ولما كانت موجودة من قبلنا ، فإنها تحتفظ بوجودها بدوننا وبالرغم منا بوساطة يقينيتها . وإنذا فلا يكفي أن يقال إن الخطأ كان له شهداء أكثر من شهداء الحقيقة ما دام أن كل نحلة وكل مدرسة لها شهداء متعددون .

ثانياً قسوة الأخلاق ، إذ يمكن أن يطلق اسم المتعصبين على تلك العقول المفرطة في القسوة التي تشرع تعاليم الدين شروحاً حرافية ، بل تتبع الحرافية في أضيق محيطاتها . وعلى أولئك العلماء المستبددين الذين يتخررون أشد المذاهب مدعاه لإثارة النفوس ، وأولئك القادة القساة من رجال الدين الذين يوئسون الطبيعة والذين — بعد أن يفقأوا عينك ، ويقطعوا يدك — يأمرونك بأن تحب إلى حد الكمال ذلك الشيء الذي يعذبك :

ثالثاً اختلاف الواجبات ، عندما تصير بعض الفكر المتناقضة — تبعاً للأهواء — قواعد للسلوك . وعندما

للأهواء والذى نشأ من الآراء التخريفية .. وهو في العموم يتأى من أن أكثر الفقهاء قصراً النظر ، أو من أن الناس قد تجاوزوا حدود ما أمر به أولئك الفقهاء .

ومنابع التعصب الخاصة هى :

أولاً طبيعة الاعتقادات التي يدينون بها ، فإن كانت متعارضة مع العقل ، فإنها تقلب الحكم وتختضن كل شيء للخيال الذي يعتبر الإفراط فيه أكبر الأضرار فالبابانيون مثلاً — وهم يدعون بين الشعوب العاقلة والأكثر استنارة — يغرون أنفسهم لإرضاء المهم المنفذ «أميدا» لأن المتناقضات التي امتلأ بها دينهم قد أحذثت أضطراباً في عقولهم . والاعتقادات الغامضة تولد كثرة الشروح ، وبالتالي تولد كثرة المذاهب والنحل .

مادة التخريج

التخريج هو اسم مؤنث (في الفرنسيّة) وتعريفه في الميتافيزيقاً أو في الفلسفة :

كل إفراط في الدين بوجه عام ، وإذا سأيرنا العبارة الوثنية ألفيناها تقول : « يجب أن يكون الإنسان تقليداً » وأن يحذر من أن يهوى في التخريج .. والحق أن التخريج هو مجموعة طقوس دينية سيئة التوجيه مليئة بالعبث والفزع ، مضادة للدين الحقيقي وللفكر السليمية التي يجب أن يعتقدها الإنسان في الموجود الأسمى . أو أن التخريج — إذا كنت تفضل هذا — هو ذلك النوع من الفتنة أو السلطان السحرى الذى تحدشه في أنفسنا الرغبة ، وهى الابنة التعسة وليدة الخيال الذى تستعمل الأشباح والأحلام والخيالات للتأثير فى نفوسنا إنه — كما يقول بيكون — هو أوثان العوام الذى هى الجن غير المرئى ، وأيام السعادة والشقاء ، وسهام الحب والبغض الذى لا تغلب .. وعندما يغرس جذوره العميقه فى أى دين حسناً كان أو سيئاً ، فإنه يكون

يدين العزوبة . ومن هذا كله يستنبط رئيس لاحدى الشيع أن الدين هو شىء ، لا أدرى ماذا أسميه ، مؤلف روح الإله ورأى الإنسان . ويضيف إلى ذلك أنه ينبغي التسامح بإذاء كل الأديان للظفر بالسلام مع الجميع : وعلى أثر هذا التصریح يصعد إلى المشنقة . سادساً التعذیب ، وقد نشأ دون ريب من عدم التسامح .

وإذا كان الحماس قد تسبب أحياناً في وجود من عذبوا غيرهم ، فإنه ينبغي الاعتراف بأن التعذيب قد خلق من المتعذبين عدداً أكثر . وما دام الأمر كذلك فعلى أي حد من الإفراط لا يلقي هؤلاء بأنفسهم ؟ وقد يكون ذلك أحياناً ضد أنفسهم حين يتحدون التعذيب ، وأحياناً ضد طغاتهم ليتذمروا منهم أمكنتهم . وهم في هذا كله لا تعوزهم المسوغات ليتسابقوا على التناوب إلى النار أو إلى الدم .. وقصارى القول أن التعصب قد أحدث في العالم شرآً أكثر كثيراً من الإلحاد ، لأن الملحدين يدعون أنهم بالحادهم يتخلصون من نيره بينما أن التعصبيين يريدون أن يغلوا بسلالتهم جميع أهل الأرض .

مادة الأخلاق

هي اسم مفرد مؤنث (في الفرنسية) معناه علم السلوك ، وهو العلم الذي يبين لنا السلوك الحكيم . ويجعل أفعالنا ملائمة مع قواعد هذا السلوك . وإذا كان من الملائم للكائنات العاقلة أن تطابق قواهم الأشياء التي هم مهيأون لها ، فإن الأخلاق هي العلم الخاص بالأنسى لأنها هي العلم المناسب في العموم مع كفاياتهم الطبيعية ، والذى تتعلق به فوائدهم العظمى . وإذا فالأخلاق تحمل معها براهين قيمتها . وإذا كان هناك أحد يحتاج إلى التعلق المنطقى لإقناعه ، فإنه يكون عقلاً فاسداً ذلك الذى يسترشد بالحجج في هذا الشأن .

يطلق على بعض المفهومات اسم الجرائم العظمى ، فإن العقل الذى يهوى تحت وفرة تلك الالتزامات لا يعود يعرف ما يمنحه التفضيل بينها فيدوس الالتزامات الجوهرية بداع احترام أقلها وأضالها . وبهذا يحل المشاهدة السلبية محل الأعمال الخبرية ، والتفضيات محل الفضائل الاجتماعية ، ويأخذ التخرييف مكان الناموس الطبيعي ، وينتهى الخوف من انتهاء حرمة المقدسات إلى جرائم القتل . . .

رابعاً استعمال العقوبات الفاضحة ، لأن فقد السمعة
يجلب كثيراً من الأضرار الواقعية . ومن ثم فإن الثورات
تكون أكثر مألفية في البلاد التي تقع فيها الصواعق
غير المرئية التي تجعل الأمير مقيناً لدى جميع شعبه :

خامسأً عدم التسامح من جانب دين بإزاء آخر ، أو من جانب شيعة بين عدد من شيع دين واحد ، لأن جميع الأيدي في هذه الحالة تتسلح ضد العدو المشترك ويصير الحياد نفسه غير ممكن مع قوة تريد أن تسود : ومنذا الذى لا يمكن إذ ذاك لها أو عليها . وحيثنى أى اضطراب لا يجب أن يحدث من ذلك ؟ بل إن السلام لا يمكن أن يصير عاماً ومتنناً إلا بوساطة القضاء على الحزب المتعصب ، لأن هذه الشيعة إذا دمرت كل الأخرىات لا تلبث أن تصير فى حرب مع نفسها . إن عدم التسامح الذى يدعى أنه يحاول أن يضع حدأً للانقسام يجب أن يزيده بالضرورة ، إذ أنه يكفى أن يصدر أمر إلى جميع الإناس بألا يكون لديهم سوى طريقة واحدة للتفكير حتى يصير كل واحد منهم متocomساً لآرائه إلى الموت فى سبيل الدفاع عنها .

ومعنى هذا أنه لو ساد التعصب لما وجد دين يستطيع أن يلائم الجميع ، لأن أحدها لا يرتضي وجود العلماء ، والآخر لا يقر وجود الملوك ، والآخر لا يقبل الآثرياء ، وهذا ينبع الأطفال ، وذلك يلفظ النساء ، والذين الفلانى يصدر حكمه ضد الزواج ، والآخر

قد يكون من الممكن أنه ينقصنا كتاب فلسفى يعالج تطابق الإنجيل مع أنوار العقل المستقيم ، لأن كلّيهما يسيران بخطى متوازية ولا يستطيعان أن يفترقا ، إذ أن الوحي يفترض في الأناسى معارف هي لديهم من قبل ، أو هم يستطيعون اكتسابها باستعمال نورهم الطبيعي . . .

وأخيراً إن من إساءة فهم الدين أن يرفع المرء قيمة الإيمان التقليدي على حساب الأخلاق ، لأنـه - ولو أن الإيمان ضروري لجميع المسيحيين - يمكن أن يعلن الإنسان بحق أن الأخلاق تسّمو على الإيمان من عدة مظاهر :

مادة الاعتدال

الاعتدال هو اسم مؤنث (في الفرنسيّة) معناه التوسط . ويستعمل في الأخلاق ، وهو في معناه العام

توسط حكيم يقف رغباتنا وعواطفنا وأهواءنا عند الحدود الدقيقة .

إن هذه الفضيلة النادرة تحمل الأناسى على الاستغناء عن الكماليات . وإن الحكم محترق الوسائل الشاقة التي ابتنعها الفن لاجتذاب السعة أو ما يسمى زيفاً باسم السرور ، وهو يكتفى بالبساطة الطبيعية للأشياء .

ولكن لنأخذ هنا الاعتدال في دلالة أكثر تحداً ، وهو - بهذه النظرة الأخيرة - فضيلة تضع زماماً لرغباتنا الجسمية . وعندما تحصرها في وسط بعيد بعداً متوازياً عن الإفراطين المتعارضين ، هو لا يصيرها بريئة فحسب ، بل نافعة وجديرة بالثناء .

إن من أهم الرذائل الأساسية التي يکبح الزمن جاحها ، رذيلى الدعاوة والشرارة . وإذا كانت هناك رذائل أخرى مضادة للاعتدال ، فإنها تنبع من أحد هذين النبعين :

